اسم المقياس:النص الأدبي القديم–شعر–

اسم الأستاذ: محمد سيف الإســـلام بـــــوفلاقـــــة

المستوى:س:01–ليسانس

## وقفة مع قصيدة وصف الجبل لابن خفاجة :

## القسم الثالث

النص:

قال ابن خفاجة الأندلسي(من الطويل) :

1- وأرعَنَ طمّاحِ الذُّؤابةِ باذِخٍ يُطاوِلُ أعنانَ السّماءِ بغارِبِ
2- يَسدُّ مهَبَّ الرّيح عن كل وجهَةٍ ويزحَمُ لَيلاً شُهبَهُ بالمناكبِ
3- وَقورٍ على ظَهْرِ الفَلاةِ كأنّهُ طوالَ اللّيالي مُطرِقٌ في العواقبِ
4- يلوثُ عَليه الغيمُ سودَ غَمائمٍ لها من وميضِ البرْقِ حمرُ ذوائبِ
5- أصَختُ إليه وَهوَ أخرسُ صامتٌ فحدَّثني لَيلَ السّرَى بالعجائبِ
6- وقال ألا كم كنتُ مَلجأ فاتكٍ وَموْطِنَ أوَّاهٍ تبتّلَ تائبِ
7- وكم مرَّ بي من مدلج ومؤوّبٍ وَقالَ بظلّيّ من مطيّ وراكبِ
8- ولاطمَ من نُكب الرّياح معاطفي وزاحمَ من خُضر البحار جوانبِي
9- فما كان إلاَّ أن طوتهم يدُ الرَّى وطارت بهم ريحُ النوى والنوائبِ
10- فما خفق أيكي غير رجفة أضلع ولا نوحُ وُرقي غير صرخةِ نادبِ
11- وما غيّض السلوان دمعي وإنّم نزَفتُ دموعي في فراق الأصاحبِ

12- فحتّى متى أبقى ويظعنُ صاحبٌ أودّعُ منهُ راحـلاً غير آيـبِ
13-وحتّى متى أرعى الكواكب ساهراً فمن طالعٍ أخرى الليالي وغاربِ
14- فرحماكَ يا مولاي دعوةَ ضارعٍ يمدُّ إلى نُعماك راحة راغـبِ
15-فأسمعني من وعظهِ كـل عبرةٍ يُترجمها عنه لسانُ التّجـاربِ
16-فسلَّى بما أبكى وسرَّى بما شجاً وكان على ليل السّرى خير صاحبِ
17- وقلتُ وقد نكّبتُ عنه لطيّةٍ سلامٌ فإنّا من مُقيمٍ وذاهبِ

تابع.....

ومن بين الحقائق التي يكتشفها الدارس لشعر ابن خفاجة أن شعر الطبيعة عنده يتصل في بعض قصائده بالعبرة والفناء،إلى درجة أن الناقد إحسان عباس يُلحقها عنده بمرض نفسي،حيث بلغ وصفه لمشكلة الفناء حداً تجاوز به كل ماقاله في شعر الطبيعة،فوقفته إزاء الطبيعة والفناء تعتبر تفاعلاً عاطفياً جديداً يقوم على الرؤية العميقة والتشخيص معاً،حيث تظهر صورة الجبل الذي يمثل الطموح والارتفاع والاعتراض والوقار الصامت الذي يُشبه إطراق المتأمل،والملاحظ أن إنسانية الجبل تتزايد شيئاً فشيئاً في القصيدة،حيث يصبح يمثل صورة أخرى من وقفة الشاعر،فهو يعبر عن استثقاله للحياة،ووحدته بعد ذهاب إخوانه،وكأنه بذلك يعبر عن قيمة الموت ،أي أن الموت يهون وقعه على نفس الشاعر التي تسعى إلى الهرب من شبحه المخيف،وقد ارتاح الشاعر حين بكى ووجد السلوى والعزاء في صنوه الجبل الذي هو أقوى نفساً على مواجهة مصيره [1]

والملاحظ في قصيدة وصف الجبل أن الجبل شخصية حية،تخاطب شاعرنا بالعجائب والغرائب،وهذا ما يُكسب القطعة نفساً ملحمياً،مع ما في إلهام الشاعر من عظمة، «ومن الجلي أن ابن خفاجة يأخذ مكان الجبل،بل ويمتزج به،فينسب إليه أحواله وعواطفه،وتبرماته،واستطاع الشاعر بفضل هذه الرؤية الخيالية أن يبوح بها في ضميره في نغمات أليمة موجعة مما يضاعف من قيمة هذه القصيدة وينبغي من جهة أخرى أن نلفت النظر إلى البيت الذي يشير فيه إلى التائب العائد إلى ربه،والذي علق عليه بيريس بقوله(لا يزال هذا البيت غريباً،لأنه يشهد بوجود متبتلين و زهاد في أواخر القرن الحادي عشر،وفي أوائل القرن الثاني عشر بلغتهم أفكار المتنسكين المستوردة منذ قليل،فمهمتهم الإعراض عن الدنيا وتذوق الحياة الرهبانية)» [2].

ستظل هذه القصيدة واحدة من أجمل القصائد التي كتبها ابن خفاجة،وهي ماتزال راسخة في أذهان الباحثين بسبب تأثيرها وعمق تشخيصها،إنها من عيون الشعر الأندلسي،لا يُمكن أن يتجاوزها كل من يتحدث عن ظاهرة التشخيص في شعر الطبيعة الأندلسية،نظراً لما تحتوي عليه من مضامين فكرية لاتُلفيها كثيراً في نتاج الأندلسيين،كما أنها تتسم كذلك بطابع قصصي يندر وجوده في الشعر العربي بصورة عامة،فهناك تشخيص عميق للجبل،وإجراء للحكمة على لسانه،في حين أنه جماد أبعد ما يكون على أن يتصور ناطقاً،فضلاً عن النطق بالحكمة،وكأن بابن خفاجة يُريد أن يُشير ضمنياً إلى أن حقيقة الوجود المأساوية–وهي الفناء المؤكد–يُدركها حتى الجماد مثل هذا الجبل الصخري

---

(1) حمدان حجاجي:حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة،ص:258 .

(2) أحمد هيكل:قصائد أندلسية–دراسة أدبية–،ص:81.

الجامد،وقد تميزت القصيدة بصياغة بيانية جزلة،وموسيقى هادئة ورزينة،وهو ما يتلاءم مع موضوعها الرزين والوقور،كما يبرز فيها التلاحم الوثيق مما يحقق الوحدة الفنية إلى درجة كبيرة[3] .

## لغة القصيدة:

يتضح من خلال أبيات القصيدة اتكاء الشاعر في طرق موضوعه على معجم شعري تتنوع مفرداته،ويتبين لنا أن الشاعر ابن خفاجة يميل إلى انتقاء معجمه الشعري انتقاءً،تأكيداً لتمرسه باللغة العربية،وقدرته على توظيف مفرداتها وكلماتها،وبراعته في تنسيق تراكيبها،فقد ارتبطت مفردات القصيدة بطبيعة فن الوصف،وقد انسجمت مع الموضوع الذي تصدى له الشاعر،حيث إنه اختار في وصفه للجبل ألفاظاً قوية،مثل:أرعن،وطمّاح،وباذخ،ووقور،والمناكب..إلخ،وهذه الألفاظ تتناسب مع الجبل الذي أراد أن يُسبغ عليه مواصفات القوة،وحينما أراد أن يُعبر عن الحزن والألم اختار الألفاظ الرقيقة،والعبارات السهلة،مثل:أرعى الكواكب،وقد ترددت عباراته على الصيغ التالية:

1-الأفعال:حيث غلب الفعل المضارع على المحور الأول من القصيدة،فقد وردت الافعال المضارعة(يطاول،يسد،يزحم،يلوث)،وهي تأخذ جملة من الدلالات من بينها الدلالة على بقاء الجبل ورسوخه واستمراره على حاله منذ وُجد.

في حين يطغى الفعل الماضي على المحور الثاني من القصيدة حيث ترد الأفعال الماضية الآتية: (أصخت،فحدثني،وقال،كنت،مرّ، لاطم،زاحم،طوتهم ،وطارت)،وهذه الأفعال تنسجم مع أسلوب السرد،حيث الجبل يروي العجائب،ويقص على الشاعر الوقائع التي حدثت في الماضي[4] .

يصنف بعض النقاد الذي اهتموا بتحليل قصيدة وصف الجبل معجم ابن خفاجة في هذا النّص حسب ثلاثة معايير : السجلات، والمصطلحات، والصفات.

أ- السّجلات : ونعني بالسّجلات الألفاظ التي وظّفها الشاعر في النص من حيثُ وضوحُها أو غموضُها، جدّتُها أو قِدمُها...،أكثر الألفاظ من المتداول في عصر الشاعر، كلمات غريبة المعنى أحيانًا، مأخوذة إجمالاً من قاموس اللغة الكلاسيكية فالشاعر يكتب بلغة عصره، هذا هو السجل الرئيس .

فالألفاظ الكلاسيكية الغريبة، مثل : أرْعَنَ – طمّاح – الذؤابة – باذخ – غارب – المناكب – يلوث – أوّاه– نكّب – خضر البحار – وغيرها ... والألفاظ المأنوسة المألوفة مثل : السماء –

---

(4) سامي يوسف أبو زيد:الأدب الأندلسي ،ص:273.

الريح – يزحم ليلا – ظهر – الليالي – الغيم – البرق – حُمر – البحار – دمعي – فراق – راحلا – الكواكب – سلام – مقيم.. وهَلُمَّ جرًّا.

ب– المصطلحات : ويُقصد بها الحقول اللغوية في النص، فالمفردات تنتمي إلى مصطلحات وأطر شتّى،وتتوزَّعُ بينها حسب نسب متفاوتة، ومن بين الحقول والأطر اللغوية التي تجلت في هذا النص:

1 -إطار الوصف : وهو من أكثر الحقول حضورًا ،ويمكن تقسيمه إلى قسمين :

– وصف الفضاء (الطبيعة) : الزمان ومؤشراته : الريح – ليلا – شُهبه – طوال الليالي – يلوث عليه الغيمُ – سود عمائم – وميض البرق – حُمر ذوائب – ليل السُّرى – نُكْب الرّياح – خُضر البحار – ريح النَّوى – أرعى الكواكب...

المؤشرات المكانية : أرعن – أعنان السماء – الغارب – الفلاة – ملجأ – موطن

– وصف الشخصية (الإنسان) : وقورٌ – مطرقٌ – يلوثُ (يلف) – عمائم (جمع عمِامة) – أصختُ – أخرس – صامت – حدّثني – قال بظلي – فاتك أوّاه (راهب يتعبد في الجبل) – تبتّل – تائب – مُدلج (من سار الليل كله...) – مؤوّب – نادب – أوُدّع – راحل – أيب – ضارع – راغب – فاسمعني من وعظه– لسان – سلّى – أبكى – شجا – مقيم – راحل... إلخ.

ما يمكنُ ملاحظته هو أنَّ كُلَّ واحدٍ من هذه الأوصاف يدلُّ على شيء واضح يتعلق بالإنسان (على وجه الحقيقة)، ويوحي بمعانٍ خفية تتعلق بالجبل (على وجه المجاز).

2 -إطار الأخلاق – المصطلح الأخلاقي والديني : مُتوّفرٌ إلى حدٍّ ما : وقور – العواقب – فاتك – أوّاه – تبتّل – تائب – رحماك يا مولاي – دعوة ضارع – راحة راغب – وعظه – عبرة – سلّى – أبكى – سرّى – شجا – خير صاحب. كلمات ذات صلة دينية تنتسب كلها إلى معجم الأخلاق (الخير – الشر).

3 -المصطلح النّفسي : يُساهم بقسط في تكوين الكلمة الشعرية : رجفة أضلع – نوح وُرقي صرخة نادب – يزحمُ بالمناكب – السلوان – دمعي – نزفتُ دموعي – لاطم – زاحم.

– نلاحظ أن الكلمات مطبوعة بطابع الحزن العميق، ولها وصلة وثيقة بعناصر الطبيعة.

– كما نلاحظ تناصًّا نوعيا بين هذه الأطر المعجمية.

– ونسجل هيمنة الوصف على القصيدة بشكل يجعل من هذه التقنية غرضًا أساسيا، إلى تلك الدرجة التي يغدو معها المشكل الاجتماعي،و الأخلاقي المعالج، قضية عارضة.

ج– الصفات : والمقصود بالصّفات لغة النّص من حيث الحسي والمعنّوي، والواقع، والرمز.

1 -الحسي والمعنوي : ما يمكنُ ملاحظته هو : أنَّ الكلمات ذات المدلول المعنوي أوفر بكثير من الكلمات ذات المدلول المادي، وذلك لأنَّ الكلمات المعنوية وثيقة الصّلة بحياة الشّاعر وأوضاعه ،فقد نظم هذه القصيدة في كبره، وفي فترة زمنية من حياته اتسمت بالمعاناة من

السفر والتنقل والاغتراب وقد عمّر الشاعر طويلا حتى بلغ سن الحكمة، وتعرّض خلال هذا العمر الطويل إلى مسرّات الدهر ونكباته، فملَّ الحياة بعد أن نظر إلى أصحابه وهم يذهبون واحدًا بعد آخر ولا يعودون، وظل وحيدًا يرقُب رحلته الأخيرة. فحالة القلق والضجر هذه التي أفرغها الشاعر على الجبل تتطلب منه أنْ يكون معجُمه المعنوي أوفر من معجمه المادي ومع ذلك فلا يخلو النّص من بعض المعاني الحسية.

2 -الواقع والرمز : يستعمل ابن خفاجة – ككل أديب – كلمات المعجم تارة على وجه الحقيقة، وتارة على وجه المجاز، ويحّمل عبارته دلالتين متراكمتين، إحداهما واقعية، والأخرى رمزية، الأولى تشخص ظاهرا ملموسا، والثانية توحي بِمعان خفية : وقور على ظهر الفلاة (الجبل والشيخ) – مطرقٌ في العواقب (الجبل والشيخ) – وقال ألاكم كنتُ ملجأ فاتك (الجبل والشيخ)...

كلٌ واحدة من هذه الكلمات تدلُّ على شيء واضح وتوحي بمعنى غامض يتداخل فيها الواقع والرّمز[5] .

وفيما يتعلق بموسيقى القصيدة فقد جاءت على وزن البحر الطويل والقصيدة من البحر الطويل، وهو من الأبحر التي كثر استعمالها في الشعر العربي،ويلجأ إليها الشعراء كثيراً، وهو يتسع لكثير من الأغراض ومنها الوصف وهو مزدوج التفعلية ولم يرد في شعر العرب إلاّ تاما:

فعول مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعول مفاعيلن فعول مفاعلن

وبالنسبة إلى التناص في هذه القصيدة،أو التأثر بالشعراء السابقين،فيبدو أن الشاعر قد تأثر في حديثه للجبل،بأبيات مجنون ليلى التي كتبها في جبل التوباد،حيث إن القارئ يحس بأصداء لها تتردد في ثنايا قصيدة ابن خفاجة،حيث إن مجنون ليلى أجهش بالبكاء،وراح يقول:

وأجهشتُ للتوباد حين رأيته وكبّر للرحمن حين رآني

وأذريتُ دمع العين لما عرفته ونادى بأعلى صوته ودعاني

فقلتُ له:أين الذين عهدتهم حواليك في خصب وطيب زمان

فقال:مضوا واستودعوني بلادهم ومن ذا الذي يبقى مع الحدثان

وإني لأبكي اليوم من حذري غداً فراقك والحيّان مجتمعان[6] .

فلعل ابن خفاجة قد يكون اطلع على هذه الأبيات،وتأثر بها على الرغم من أن الغرضين يختلفان،فابن خفاجة قال قصيدته في وصف الطبيعة،بينما يقصد المجنون ليلى وأهلها،ومقطوعته

---

(5) سعد بوفلاقة:في سيمياء الشعر العربي القديم ودراسات أخرى ،ص:29 وما بعدها.

(6) ديوان مجنون ليلى،ص:83.

(2)سامي يوسف أبو زيد:المرجع السابق ،ص:276.

**غرضها الغزل،ويتجلى التشابه بين القصيدتين في أنها على نفس الوزن،وكلاهما يُحاور جبلاً،وكلاهما يتسم بجمال الأسلوب وعمق العاطفة،وهدفهما الاعتبار والعظة من تقلبات الزمن[7] .**